مكتبة الشباب

حكايات تحدث غداً

تأليف

عبد التواب يوسف

رسوم

إسماعيل صبرى

سفير الدولية للنشر

obeikandl.com

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م
حقوق الطبع محفوظة
رقم الإيداع : ١٤٨٧٤ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولي : 3 -524-361-977
سفير الدولية للنشر
٢٦ ش محمد عز العرب من ش القصر العيني - ص.ب : ٤٢٥ الدقي - القاهرة
ت : ٢٥٣٢٩٥٠٥-٢٠٢+ فاكس : ٢٥٣٢٩٩٠٢-٢٠٢-
E-Mail: info@Safeer.com ـWeb Site: www.safeer.com.eg
المعرض الدائم
٤٨ ش أحمد عرابي المهندسين
تليفون : ٣٣٠٤٩٤٠٣ / ٢٠٢-

obeikandl.com

مقدمة

كنا نحكى ونبدأ بقولنا ..

- كان يا ما كان ..

أى أن كل ما نحكيه حدث ووقع فى الماضي ..

وكنا نختم حكاياتنا بنهاية سعيدة ..

- وتزوج الفتى بالفتاة، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح، وعاشا فى تبات ونبات وخلفا الصبيان والبنات ...

حكاياتنا هنا مختلفة .. ستكون بدايتها ..

- سوف يأتى زمان، تقع فيه أحداث حكايتنا .. وسنذهب معًا إلى المستقبل.

وغالباً لن يكون هناك ختام تام .. فما من فتى وفتاة يتزوجان وينجبان؛ لأن النهاية ستكون مفتوحة .. نعم ، هى مفتوحة على مصراعيها ، تنتظر الجديد من جهود العلماء والعلم .

obeikandl.com

النكتة التى ستصبح علمًا !

روى لى مصرى، يعيش فى كندا فكاهة، ظل على مدى عشرين عامًا يذكرها، فقد حدثت مع جدته ، وكانت فى زيارة لطبيب ، قال لها وهو يشير إلى تذكرة الدواء، أى الروشتة :

- هذا الدواء للمفاصل ، وهذا سيريح معدتك، وهذه النقط للأنف ، وهذه تحتاجين إليها لوجع رأسك والصداع ..

سألته الجدة ، وهى جادة تماماً :

- وكل دواء يعرف طريقه إلى مكان المرض ؟

انفجر الطبيب ضاحكًا ، وهو يطمئنها إلى أنها سوف تكون بخير ، إن شاء الله .. الدم سيحمل العلاج للمكان المصاب.

ضحكت للنكتة ، وفيما بينى وبين نفسي تساءلت :

- لماذا ظل صاحبها يذكرها ، ولا ينساها ؟ !

بل وأضاف ..

- الغريب أن هذه أول مرة أحكيها منذ حدثت .

ويذهلنى أننى أيضًا لم أنقلها لأحد، ولم أتحدث بها، مع أن عشرين عامًا مرت منذ سمعتها ..

ربما تسألون :

ما الذى جعلنى لا أنساها؟ ولماذا قفزت إلى ذهنى اليوم لأضعها على الورق ؟

لست أدرى لماذا بقيت فى زاوية من ذاكرتى ، لا أنساها ، وأيضًا لا أتحدث عنها ، ذلك أن ذاكرة الإنسان تذهلنا بأمورها .. لكننى أعرف تمامًا لماذا أحكيها الآن ..

كنت فى زيارة لطبيبى ، وقال وهو يكتب لى التذكرة :

– هذا الدواء له آثار جانبية قد تكون كبيرة لكنك فى حاجة ماسة إليه .. لذلك لابد من متابعتك خلال تعاطيك له .. أبلغنى كل يومين تأثيره عليك، فى التليفون ... وربما تحتاج إلى دواء لتخفيف هذه الآثار الجانبية.

كنت أستمع للطبيب صامتًا، فقد تعلمت منذ طفولتى على أن أكون مريضًا " حصيفًا "، بعد أن قرأت مقالاً بهذا العنوان .. نصحنى بأن أحسن الاستماع للطبيب، وأن أنفذ تعليماته بدقة، وأن أطرح عليه من الأسئلة ما أشاء ، من حقى هذا، ومن واجبه أن يجيب .. وأنه لا عيب فى أن أكثر من السؤال ، بل والتعليق .. ولم أحك له النكتة.

تابع الطبيب حالتى، ولم نحتج إلى دواء جديد .. الله سلّم .. لكن ذاكرتى استحضرت النكتة، وقلت لنفسى: إننى سوف أحكيها له فى أول

obeikandl.com

زيارة تالية .. ونسيت.. وبدأت أقرأ كتابًا يحتاج إلى تركيز شديد ، كنت أقرأ فى بطء شديد ، وبالطريقة التى كنا نستخدمها ونحن صغار .. كنا نضع خطوطًا بالقلم الرصاص على النقاط المهمة، ونستعيد قراءة بعض السطور أكثر من مرة .. تطور الأمر - الآن - وأصبحنا نمسك أقلامًا فسفورية ملونة ، نمر بها فوق ما نعتبره مهمًا ..

الكتاب الذى كنت أقرؤه يتحدث عن القرن العشرين وما حدث فيه، والقرن الحادى والعشرين وما نتوقع منه .. وتوقفت عند ثلاثة أسطر لونتها بالكامل، وأنا بحاجة إلى نقلها إليكم، وهنا يتحتم علىّ أن أذكر عنوان الكتاب واسم مؤلفه:

الكتاب : إدارة المعرفة والإبداع المجتمعى

المؤلف : محمد رؤوف حامد

وهو يحمل الدكتوراه فى بحوث الدواء ورقابته، لكنه لم يستخدم درجته العلمية هذه ، ولم يضع ما يدل عليها - حرف د. - وأعتقد أنه فعل ذلك عن قصد هو أنه لا يكتب فى تخصصه الدقيق ، وإنما يكتب عن : الإدارة، والمعرفة، والإبداع والمجتمع ، وهو بهذا يلقننا درسًا ، نرجو أن يعين من يدّعون لأنفسهم هذه الدرجة العلمية ، كما أن الأطباء - مثلاً - الذين يكتبون أدباً من المهم أن يكتبوا أسماءهم على أعمالهم مجردة من " د " ، إذ هم لا يكتبونها بصفتهم أدباء ..

ولدينا من يدعى كتابة البحوث والدراسات ويضع تحت اسمه ما لا يقل

عن عشر وظائف شغلها ذات يوم ! معذرة ، إنه درس يجب أن نتعلمه ..

المؤلف بلفت نظرنا إلى شيء مهم ، كان يحدث في الماضي .. كان هناك فاصل مكاني وزمني بين البحث العلمي من جانب والإنتاج من الجانب الآخر .. بمعنى أن إديسون قد يخترع شيئاً في معمله ، ويمر وقت طويل قبل أن يتم إنتاج هذا الاختراع ليذهب إلى المصانع لتنتجه بكميات كبيرة كي يباع في الأسواق .. بدأ هذا يتغير .. الشركات الكبرى لديها معامل أبحاث، ما إن تصل إلى (ابتكار) ما ، حتى تسارع الشركة بإنتاجه وطرحه في الأسواق ..

بعد هذا التوضيح أنقل الأسطر الثلاثة :

" ويُتوقع أيضًا أن يحدث الشيء نفسه مستقبلاً بخصوص الأدوية المحتواة في كبسولات دقيقة تمكن الدواء من الوصول والتأثير فقط في المكان المقصود داخل الجسم (العضو المصاب) ".

كل ما أرجوه ، أن تكونوا قد قرأتم الفقرة السابقة في بطء، وبطريقتنا في الدرس والاستذكار ، وأن تكونوا قد فهمتم معانيها كل الفهم واستوعبتم ما قصدناه ونحن نختار عنوان هذه الحكاية ..

جدة المهاجر إلى كندا قبل سنوات بعيدة طرحت على طبيبها سؤالاً جعله يضحك من قلبه ، هو :

– هل يعرف كل دواء نتعاطاه طريقه إلى مكان المرض ، و (العضو المصاب) لكي يعالجه ؟

الإنسانية - أصدقائى - ستحاول ذلك ، وتجعل من هذه النكتة واقعًا ، وحقيقة علمية ، نأمل الوصول إليها فى مستقبل قريب ..

والسؤال :

- هل يكون واحد منكم هو الذى يحقق للإنسانية هذا الشىء وذلك النجاح ؟

وبعد ..

هل يمكن أن ننهى ما كتبناه دون أن نوجه الشكر للكتاب ، وصاحبه، وناشره؟

obeikandl.com

متحف الكتب

قالت لبنى الصغيرة الجميلة: أريد حكاية يا جدى.

- تعالى ..

أجلس الجد لبنى إليه، وضمها لصدره، وقبل خدها، ولثم شعرها، وقال ..

- كان يا ما كان، فى سالف العصر والأوان ... انزلقت لبنى من بين ذراعى جدها، وقالت:

- لماذا كل الحكايات تبدأ هكذا؟ ولماذا فى سابق العصر والأوان؟ لماذا لا تحدث اليوم؟ فتح الجد عينيه، وفمه فى دهشة تصل إلى حدّ الذهول .. كان يريد أن يستدعى حكاية عن اليونانى إيسوب، قبل ٢٥٠٠ عام، وربما من كليلة ودمنة، أو من ألف ليلة وليلة، لكن هاهى الصغيرة لا تقبل حكاية من هذا القبيل ..

وها هى تقف أمامه، رافعة رأسها، مقطبة جبينها، تطالب بحقها فى أن تسمع حكاية، قد تحدث غدًا ..

لم تطل حيرة الجد، فقد كان صاحب خبرة، كما أنه قرأ آلاف القصص من أوربا وأمريكا وأستراليا، غير أنها جميعها ليست مما قد يحدث غدًا، وإنما تبدأ بالفعل الماضى: كان .. وهو لا يريد أن ينقل إليها حكاية من عنده، سألها ليعطى لنفسه فرصة، لعله يلتقط منها فكرة:

- ما الحكاية، أو موضوع الحكاية التى تريدينها؟

- حكاية عن زمن آت ..

- تعالى .. عودى إلى مكانك .

عادت الصغيرة إلى حضن جدها وهى تقول :

- وأريدها طويلة .. طويلة .. طويلة ..

راح الجد يفكر بسرعة قبل أن تورطه فى موضوع لا يستطيع أن يؤلف حوله حكاية محبوكة .. قال :

- فى عام ٢٠٨٠ كانت الجدة لبنى تسير فى الطريق، ممسكة بيد حفيدها يوسف.

ضحكت لبنى ، وفهمت أنه يحكى لها حكاية عنها ، عندما تصبح عجوزاً .. وسألت:

- هل كانت تتوكأ على عصا ؟

- لا لا .. لقد استطاع العلماء أن يصلوا إلى الجينات التى تسببت فى ضعف الساقين والأقدام وعالجوها .. تعرفين الجينات ؟

- طبعًا ..

استطاع الجد أن يمسك بزمام أفكاره ، والتقط خيطًا، أو بداية خيط ، يمكن أن يمضي معه ..

سأل يوسف جدته ..

openkandil.com

- هل عشت أيام الملك مينا ؟

قهقهت الجدة ، وأجابت :

- الملك مينا عاش قبل خمسة آلاف عام.

- هل زرت بغداد فى عهد هارون الرشيد ؟

ومن جديد راحت تضحك ..

- ولا فى عصر بوش .. دعك من زمان ، وأيام زمان ..

- أنا أحب حكاياتها ..

وفجأة عثرت قدم يوسف فى شىء لم يره، كان مستندًا للرصيف، فأبعده عن مكانه، وسقط أمامه على بعد متر، مال عليه ، والتقطه .. وراح يحدق فيه بدهشة كبيره ، وهو يقلبه بين يديه سائلاً جدته ..

- أى شىء هذا ؟

- ألم تر كتابًا من قبل ؟

- لا .. ما هو الكتاب ؟

- هذا الذى فى يدك ..

- ما هذه المادة المصنوع منها ؟

- اسمها الورق .. والغلاف سميك ومقوى من أجل أن يحافظ عليه،

obeikandl.com

ويبقيه سليمًا..

- إن فيه كلمات كالتى نطالعها على الشاشة، وصورًا ملونة مثل التى نشاهدها .. من اخترعه ؟ إديسون ؟

- لا لا .. وجد نوع منه أيام جدودك فى مصر القديمة قبل إديسون بآلاف السنين..

- ماذا كانوا يفعلون ؟ !

- يقرءونه .. يدرسونه .. يستذكرونه ، بالذات فى المدرسة ..

- المدرسة؟ وماهى المدرسة ؟

- بناء فيه فناء ، حوله حجرات ، يجلس فيها من هم فى سنك يتلقون العلم على أيدى المعلمين .

- ماذا ؟ ألم يكن كل منهم يشترى لنفسه معلمًا ؟ !

- لا لا .. المعلمون كانوا بشرًا ..

- معلم مثلنا ، وليس كمبيوتر ؟

- أى نعم ...

احتجت لبنى وقالت :

- يوسف هذا ثرثار .. لا يكف عن الأسئلة .. أريد أن تسرد لى الحكاية .. أين كانت الجدة ذاهبة ومعها يوسف ؟

obeikandl.com

- كانا فى طريقهما لشراء أجندة للقرن الثانى والعشرين ...

- هل احتفظ يوسف بهذا الذى اسمه الكتاب، أم سلمه للشرطة ؟

- أنت أصبحت ثرثارة مثل يوسف .. دعينى أحك لك الحكاية .. لم يعد الناس فى حاجة إلى الشرطة ، وأقسامها ، وألغى هذا النظام تمامًا ، كل ما هنالك أن أصبحت هناك عشرات الكاميرات فى كل مكان ، يرقب منها رجال الأمن وهم فى بيوتهم ما يجرى ، ويبلغون السيارات المنطلقة التى تجوب الشوارع ..

وقد أصبح من الصعوبة بمكان على اللصوص مثلاً أن يسرقوا أو ينشلوا، وساد لون من الأمان والاطمئنان والسلام بين المواطنين .. القانون حاسم وقاسٍ على من تسوّل له نفسه مخالفته ..

قالت لبنى :

- أريد أن يمتد بى العمر لهذا الزمن ..

- ربما .. قد تعيشين كما عاش نوح .. المهم :

اشترى يوسف وجدته أجندة للقرن الثانى والعشرين ..

- أجندة لقرن وليس لسنة مثل الآن ؟

- نعم، كانت قرصًا صغيرا ، فى حجم عقلة الأصبع ..

- ماذا ؟

- أنا غير قادر على أن أواصل الحكاية ، لأنك تقاطعيننى .

- آسفة .. لن أفتح فمى بكلمة ..

- لم تكن الأجندة للأيام والأسابيع والشهور والسنين؛ لأن الناس لم يعودوا يستخدمون الثانية والدقيقة والساعة لقياس الزمن ..

- هل من مقياس آخر ؟

نعم ، اتخذوا عدد دقات القلب لقياس الوقت .. بمعنى أن العلماء قد توصلوا إلى أن قلب الإنسان يدق على مدى حياته حوالى ٨٠٠ إلى ٩٠٠ مليون دقة !

- ماذا ؟

- هى دقات قلب - كل ما - نسميها الذبيات .. قلب الفأر يدق نفس العدد..

- ماذا ؟

- أنت تعرفين أن فقرات عنق الفأر ، وعنق الزرافة : سبع فقرات .

- وماذا فعل يوسف وجدته فى الكتاب ؟ هل أخذوه إلى المكتبة ؟ !

- لا لا .. لم تعد هناك مكتبات .. قرص اللبزر الصغير عليه خمسة آلاف كتاب، ما حاجتنا إلى بناء مكتبات ؟ ! .. أخذوا الكتاب إلى المتحف.

- كيف هو هذا المتحف لنزوره ؟

- لم يعد الناس يذهبون إلى المتاحف، بل إن المتاحف تذهب إليهم فى بيوتهم من خلال كاميرات.

obeikandl.com

التداوي بالحكاوي !

الداء ، نعالجه بالدواء ..

وقد تلازم ذلك منذ وجد الإنسان نفسه على الأرض .. يمرض ويبحث عن العلاج ، ويتألم فيسعى إلى ما يخفف عنه الألم ..

وقد طال بحث الإنسان عن أسباب المرض من أجل أن يشفى منه ، إلى أن تعرف على الجراثيم ، وخاض ضدها معركة ضارية ..

وما زالت هناك أمراض بلا دواء شاف، بجانب أن الدواء قد يصيبنا هو نفسه بالمرض، إنها رحلة وحكاية طويلة تستحق أن نحكيها ..

سأل الطبيبُ مريضَه :

- ماذا ورثت عن أجدادك ؟

ضحك المريض ، وسأل طبيبَه :

- ما علاقة هذا بمرضى ؟ .. لقد ورثت بضعة فدادين ، وبيتًا صغيرا و ..

وإذا بالطبيب يقهقه بصوت عالٍ، ويقاطعه :

- مالى بكل هذا ؟ أعنى بسؤالى ما ورثته من أمراض ..

- أمراض ؟ !

- نعم، أصبح من الضرورى رسم خريطة لجينات الوليد فور نزوله من بطن أمه .. وربما قبلها وهو جنين؛ لمعرفة ما ورثه عن أبويه وجدوده من جينات

متوارثة فى كل من عائلتى الأب والأم ..

- هذا شىء جديد علىّ ..

- لا لا .. لقد قالها المثل الشعبي من قديم :

" العرق يمد لسابع جد ".

قهقه المريض من أعماق قلبه ، وقال للطبيب :

- بدأتم منذ بعض الوقت تعودون إلى طب الأعشاب ، والأدوية الشعبية ، هل سوف تعالجوننا بالأمثال الشعبية ؟

وربما يمتد الأمر إلى الحكاية الشعبية كذلك ؟

لم يضحك الطبيب ، وقال فى جدّية شديدة :

- هذا وارد ، ألم ترد فى الحدوتة الشعبية عدة مرات " التفاحة الذهبية" التى تشفي كل الأمراض ؟

صمت الطبيب، يدير الفكرة فى رأسه ، وقد انبهر بها ، وطار إعجابًا بما يقوله الضيف :

ثم ابتسم، وقال:

- أنت لم تبتعد كثيرا عن الحقيقة ، ويتداول الأمريكيون والأوربيون ، وفى البلاد المتقدمة عامة عبارة " العلاج بالقراءة " ..

- سمعت وقرأت عنها، وتصورت أن الأمر لا يتجاوز تسلية المريض

بالقراءة له، كما يقال: " اقرأ لطفلك " و " اقرأ لمريضك " .

- لا لا .. المسألة أكبر وأبعد مدى من هذا .. ومما لاشك فيه أن هذا سوف يكون لونًا من ألوان العلاج فى القرن الحادى والعشرين ..

ابتسم المريض ، وقال :

- لنا أن نتوقع كتبًا تحمل عناوين ، مثل :

" قصص لعلاج مرضى الكبد والمعدة " ، أو .. " يتعاون فى روايتها طبيب، ومعه متخصص فى الحكايات".

- نعم ، وهناك كتب وقصص ، يحذرون المرضى من قراءتها ، ولا يرتاح الأطباء لقصص الرعب فى أيدى مرضى القلب ..

قال المريض :

- سيدى الطبيب أخاف أن أكون قد عطلتك وأخذت من وقتك الثمين ما لايحق لى .

- حوارنا يضيف لى الكثير ، لا تنزعج لوقتى ..

- لكن ما الذى جرنا لكل هذا ؟

- ما طالبتك به من خريطة الجينات المتوارثة والتى قد تحمل توقعًا، يجب علينا تفاديه .

قال المريض :

– ذكرتنى بحكاية صغيرة حدثت لى مع الطبيب العبقرى المرحوم أنور المفتى .. كنت فى انتظار دورى فى عيادته، لأول مرة .. قلت لنفسي : أتسلى وأدفع عنى الملل، ورحت أكتب حكايتى مع المرض منذ وعيت للحياة .. وعندما استقبلنى قدمتها إليه، وألقى عليها نظرة وقال :

" لو أن كل مريض صنع هذا لوفّر علىّ ثلث أو نصف وقتى معه" !

هتف الطبيب :

– هذا شيء رائع ، وإن كان يتواضع إذا ما قيس بما أطلبه من مرضاى: خريطة جيناتهم الوراثية .. وكانت هناك بذور لهذا فى القرن الماضي حين يسأل الطبيب مريضه : هل عانى الأب أو الجد من هذا المرض .. هو يريد أن يستشفّ إن كان هذا المرض وراثيًا أم كان طارئاً على صاحبه .

غادرت عيادة الطبيب، ولم تغادر فىّ قط كلمة واحدة مما تبادلناه من حديث، ورحت أدبره فى رأسى، بل وأضع بعض أطرافه على الورق، وأقول لنفسى :

– فاتتنى أسئلة كثيرة كان يجب أن أطرحها عليه، وأفكار عديدة كان لابد أن أناقشها معه، لعل فى مقدمتها: هل تتوقع يا دكتور أن يكون هناك تخصص مستقبلى فى الطب، ومراكز لرسم خريطة "الجينات الوراثية"، وأن تكون هذه الخريطة هادية لنا فى توقع مرض بذاته فى سن معينة ؟

من المؤكد أن الإجابة ستكون نعم .. وستكون على أوسع نطاق، كما حدث فى مجال معامل التحليل والتصوير المجسد والملون، وما تجريه من رسم للقلب وما يسمونه الرنين المغناطيسى و ..... و ..... و .....

كانت الأسئلة التى تظهر فى رأسي لا تنقطع ، وأطرف ما فيها أننى - وصلتى بالطب لا تتجاوز أنى مجرد مريض - أستطيع ببساطة أن أجيب عن العديد منها..

- هل يمكننا ، يا سيدى الطبيب ، أن نتوقع حدوث المرض ، بواسطة هذه الخريطة، وننجح فى اتقائه أو علاجه قبل أن يصيبنا ؟

الجواب : نعم، خاصة وأن تكنولوجيا الدواء تتقدم.

وأداعب نفسى ضاحكاً :

- من بين هذه التكنولوجيا أننى أتوقع أن تفتح د . نبيلة إبراهيم - المتخصصة فى الأدب الشعبي، والدكتوراه التى حصلت عليها من ألمانيا حول الأميرة ذات الهمة - عيادة أو مستشفى صغير لعلاج المرضى بواسطة الحكايات الشعبية، وأن يقيم د . أحمد مرسى شيئًا من هذا القبيل ، وهو الذى أعطى كل عمره للأدب الشعبي ؟ وهل يفكر أ. صفوت كمال - جامع الحكايات الشعبية الكويتية أن يعود للكويت بمشروع مماثل ؟ !

وضحكتُ .. فقد بدأتُ " أكلم نفسى " .. وهذا له معناه!

هم ، إذًا فكروا فيه منذ الآن ، من المؤكد أنهم سوف يشاركون فيه، وفى ابتكاره، وربما رأينا بطاقة أحدهم مستقبلاً تحمل اسم واحد منهم، "فلان: رسام خرائط الجينات الوراثية " بديلاً عن بطاقة أحدهم التى تضمنت ثمانية أسطر ، فى آخر كل منها: سابقًا ، بينما أطفالنا يبنون لنا مستقبلنا الزاهر والمشرق ..

ومن المؤكد أن دواء المستقبل سيكون أكثر فاعلية ، خاصة عندما يتجه مباشرة لعلاج الجزء المريض ، ولا يسبب أضراراً جانبية ..

قادنى حديثى مع نفسى إلى تذكر طبيب أطفالى .. رحمه الله .. كان فذًا .. رائعًا .. أحمل إليه صغيرتى ، يكشف عليها نصف ساعة ، ويعطينا تذكرة الدواء ، ننظر إليها فى ذهول ..

- ماهذا يا دكتور عبود ؟

- نصف قرص أسبرين ، ولا شىء آخر ..

- الطفلة لبنى مريضة جدًا ، والدكتور (.....) يكتب لمن أقل منها مرضًا تذكرة أدوية من صفحتين ..

يقول فى ثقة وتؤدة :

- دعوا الجسم يهزم المرض .. دعوه يفرز من عنده ما يبيد هذه الجراثيم ، لا تعوقوه عن أداء هذه المهمة الجليلة، وتعهدوا بها إلى الدواء المصنع ..

دعوا الجسم يخلق لنفسه مناعته .. دعوه يكون طبيب نفسه .. طبيب ذاته .. صفحة الأدوية تؤكد أن صاحبكم لم يعرف حقيقة المرض، وأعطى دواء لكل احتمال، هو يقتل المناعة عند الأطفال .

وأهتف فيما بينى وبين نفسي :

- ما أروعك يا دكتور عبود ، أنت بحمد الله وراء المناعة التى يتمتع بها أطفالى بعد ما كبروا ..

والقرن الحادى والعشرون سيعتنق فكر د . عطية عبود .. سيجعل الجسم من تلقاء نفسه يفرز قوات باسلة لمقاومة جيوش الجراثيم ، ويرفض أن تستعمر أجسام أصحابها، وسوف يوقع بها هزائم حاسمة .. وهذا ما يفعله الأنسولين وما يقوم به هرمون النمو عند أحبابنا الصغار ، الذين هم قادرون على المحافظة على صحتهم ، اعتمادًا على قدمين يسيران عليهما : الغذاء والرياضة ..

فى الأسواق أدوية ، ومستحضرات طبيعية تعين على ذلك ، لكن كلفتها عالية ، وثمنها مرتفع ، ومع الأيام والعمل ستصبح أكثر وأرخص..

أجسام البشر ستصبح معامل ومصانع للدواء الذى تحتاج إليه ..

لقد حلمت الإنسانية بإنسان سليم ، خالٍ من المرض ، هل ستستطيع أن تجعل الوليد ينزل من بطن أمّه على هذه الصورة، إذا ما نجحنا فى استبعاد الجينات الوراثية التى تسبب المرض ؟! ثم هل علماء هذا القرن الجديد فى مقدورهم أن يحموا هذا الوليد السليم الصحيح ويحُولُوا بينه وبين أن يمرض؟!

تخيلوا هذا ..

لقد منحنا الله عقولاً نفكر بها فى الوصول إلى هذا الحد، أو شىء قريب منه، راقضين ما قاله ذلك الشيخ ذات يوم: هذا ضد مشيئة الله !، وكم أزعجنا قوله السخيف هذا، مع أنه من المؤكد أنه ردد على مسامعهم المقولة الحكيمة:

- إن الله خلق الداء والدواء، فتداووا !

والناس منذ خلقهم الله يتداوون .. عقلهم هداهم إلى هذا ، وجاءت هذه الحكمة لتؤكد على صدق ما ذهبوا إليه، منذ عهد مصر القديمة، الفرعونية، مروراً بواحد من أكبر العارفين بالدواء في التاريخ ونعني به شيخ العشابين ابن البيطار وصولاً إلى معامل بحوث الأدوية في البلدان المتقدمة .. والتي تجرى تجاربها على الحيوان ، قبل أن يتعاطاها الإنسان، ومن المؤكد أن التضحية بالفئران البيضاء أجدى على الحياة على الأرض والبشر ، بديلاً عن ضحايا المرض..

وترد إلىّ فكرة تضحكنا ..

- هل يمكننا أن نجرب " التداوى بالحكاوى " ؟ !

وكان الجواب: نعم، وهذا ما صنعته الجدات والجدود مع الأحفاد، دون الحاجة إلى التجريب في المعامل، ومن غير أن نحتاج إلى فئران تجارب ..

وخطر في بالي أن أسجل فكرتي هذه ، وأن أحتفظ بحق ملكيتها لك ، وسخرت من نفسي ، خاصة بعد أن علمت أن عشرة بالمائة فقط من الأدوية التي يتم تحضيرها، هو كل ما يعترف به ، والباقي - تسعون بالمائة - لا يتم تسجيله ، وهناك ثلاثة بالمائة فقط تنجح في أن يتم إنتاجها استثماريًا ..

الحكاية طويلة

المارد القزم

عندما أشعر بالملل والسأم ، أستدعى مارد مصباح علاء الدين أو عفريت القمقم والزجاج ، أو جنى خاتم سليمان ، وأداعب الواحد منهم ضاحكا ساخرًا ..

إننى كثيرًا ما أتسلى بهم .. مرة أقول لواحد منهم :

- لا أحب العبودية ، أنت حر ..

ويصرخ لأنه لايعرف ماذا يفعل بالحرية، وقد تعود على العبودية، ومرة أسأله:

- هل تعرف " الجينات "؟ وتكون إجابته أنه يعرف الجنيات والحوريات .. أنهره، وأصرفه طالباً أن يعود إلىّ وقد درس " التكنولوجيا " الحيوية .. وعندما أعدته، سألته أن كان قد درسها، قال :

- ليس فى عالمنا شىء من هذا القبيل ..

- قل لى : ماذا يدور فى هذا العالم الذى تعيشون فيه ؟ ! أين هو ؟ ماذا تفعلون غير انتظار أن نستدعيكم إلينا لتهتفوا " شبيك لبيك " ؟

- لا نفعل شيئًا ..

- تعيشون عاطلين بلا عمل أو نشاط ؟

- نعم .. وربما نتزوج من جنيات وننجب عفاريت صغارا، لتخلفنا فى مهمتنا بعد عمر طويل ..

استنكرت عبارته ، يتحدث عن عمر طويل ، وصاحبنا الذى كان من القمقم ظل فيه كما قال ثلاثة آلاف عام .. لذلك قلت له ..

- أتريد ، يا طويل العمر ، أن يزداد عمرك طولاً ؟

- لم لا ؟ ! .. لنخدم الإنسانية ..

- أى خدمة هذه وأنتم تحققون لهم مايريدون فى غمضة عين ، تأتون بالمجوهرات، وتبنون القصور ، وتنقلونها بكل بساطة ؟

- لقد وُجدنا من أجل هذا !

- أنتم تفسدون على الناس حياتهم ، وما من جدوى منكم إلا تحويلهم إلى عاطلين بالوراثة .. أحنى الجنى رأسه ، وقال لى ..

- هل تسمح لى يا سيدى بالجلوس .. لنتحدث ؟

قلت وأنا أشير إلى مقعد قريب :

- تفضل .. ولا تحاول أن تقوم بواحد من أعمالك العفريتية ..

- أمرك يا سيدى .. أنا لم أجالس أحدًا من قبل .. فقط أتلقى الأوامر وأنصرف لكى أقوم بتنفيذها ..

كنت مثله ، لم أجلس يوماً إلى مارد أو جنى أو عفريت .. ولكى أمنح نفسى فرصة لطرح ما عندى من أسئلة، قلت له ..

- أتحب أن تشرب كوب ليمون ، أو فنجان قهوة ، أو ..

obeikandl.com

قال : لا لا .. نحن لا نشرب شيئًا .. المفروض أننا من نار وتعرف أن الماء يطفئها ويقضى عليها .. قلت له :

- حدثنى عن عملكم .. وحياتكم .. وعالمكم ..

- عملنا! عالمنا! حياتنا .. ليس هناك شيء من هذا القبيل .. نحن وهم.. نحن خيال .. نحن مجرد " حدوتة " .. حكاية .. قصة لا أكثر ولا أقل .. سيدنا سليمان لم يكن لديه هذا الخاتم الشهير، وعلاء الدين نفسه شخصية خيالية مثل مصباحه، ولم يكن هناك عفريت فى القمقم أو الزجاجة، وهما أيضًا لا وجود لهما .. لكن الناس استمتعت بإيجادنا وابتكارنا، واخترعتنا من عندها .. هل ترانى حقًا أجلس إلى مقعد أمامك؟ .. الحقيقة المرة أنك تتحدث إلى نفسك، وتجيب عن أسئلتك، وتلعب بالفكرة التى هى خيالية مثلى ..

- ألا يمكن أن يكون لك وجود حقيقي ؟ ..

تخيلنا الطائرة والغواصة، وتوصلنا لصنعهما !

- أنا يا سيدى " وهم " .. هل يمكن صناعة " الوهم " ؟

لم أرد .. سكتُّ .. أدير السؤال فى رأسى .. ما أصنع به! .. لكننى أعرف رجلاً جعل من نفسه " وهمًا " .. تصوّر أنه " مؤلف " وهو لا يؤلف شيئًا .. وتخيل أنه " كاتب " وانضم لاتحاد الكتاب ، وصارحنا يومًا أنه لا يكتب قصصاً من لون الخيال العلمى، وهو لايكتب شيئًا على الإطلاق .. لكن خلق من نفسه ماردًا وعملاقًا ، وجنًا وعفريتًا ، وهو مجرد قزم ضئيل أشبه ما يكون بمخلوقات " توف يانسون " الفنلندية" أو " مارى نورتن " البريطانية، وربما مثل " الهوبتس " التى يتحدث عنهم " تولكن"، وهم يكبر هو والعلم

والتكنولوجيا ، وصاحبنا ضئيل وحقير ، يسرق بضعة أعواد من مقشة، أو إبرة وخيطًا ويسارع إلى ما تحت الأرض ، كأى لص .. وقبل أن يفعل ذلك يروح يحدث الدنيا عن نفسه ، وإبداعاته ، وعبقريته .. ويختفى فترة، يدوسه خلالها الناس والأطفال بالأقدام .. ويحدث أن يهرب إلى أنابيب المجارى ومواسير الصرف، التى هى مصيره .. ولِمَ أحدث الجنى بكل هذا ؟! لكن هذا الإنسان الجنى المارد، أراه دائمًا منتفخًا مثل بالون ، وعندما يلقاه أطفالنا ، أو يرون كتاباته ، فإنهم يتعاملون معها بدبوس صغير .. يأتى عليه ، وعلى نفخته الكذابة .. عندما طال سكوتى سألنى المارد :

- ماذا هنالك ؟ فيما تفكر ؟

- أفكر فى " مارد " فارغ مثلك .. وأفكر فيما سميته "صناعة الوهم"..

- هل تشتغل بها ؟ !

- إنى أحاول أن أجعل من الوهم حقيقة ، من الحكاية واقعًا .. كما أصنع معك الآن ، وأصنع بك !

- إنها مهمة صعبة ، بل أكاد أقول إنها شبه مستحيلة.

- هذا هو التحدى الحقيقى الذى يواجهه أمثالى .. نخلص لقضية، نعايشها، نعيشها نخلص لها ، نعطيها أنفسنا ..

- وهل تعطيكم نفسها ؟

- هى تضن علينا بذلك ، بل هى وبحق " تضنينا " وترهقنا بل وتعذبنا،

وتتعبنا إبداعا وخلقًا؛ لأننا نحاول أن نرتاد عالمًا ، أشبه بما يكون عليه عالمكم .. بينما يتبجح اللصوص الآتون من عالم وهمى مثل عالمك .. عالم خرافى، وهمهم وخرافتهم سوف تذرو بها رياح الحقيقة وعواصف الواقع ، فيتبددون هم وأعمالهم، وتذهب بلا عودة أعمالهم وأيامهم ..

سألته :

- ألا تشتاق للعودة إلى عالمك ؟

- هذا خير لى ، ولك ..

- انصرف ..

ويختفى المارد ، الذى لم يكن موجودًا أصلاً .. وأمدّ قدمى إلى المقعد الذى كنت أتصوره جالسًا فيه ، وكلى رغبة فى أن أنفضه من رأسى، وأطرده من دماغى، خاصة وأننى اكتشفت أنه يحتل ركنًا منها، ولابد لى من التخلص منه بالكامل، كفكرة ..

كان سبيلى إلى ذلك سهلاً وميسورا : أن أحمل الخاتم ، والمصباح ، والقمقم ، وألقى بها فى البحر .. لتهبط إلى الأعماق ، حيث لا يصل إليها يد إنسان ، ورأيتنى أضحك على نفسي: إذا كانت هذه الأشياء ، أصلاً ، وهمًا وخيالاً ، كيف السبيل إلى التخلص منها ؟

والحقيقة أنها مشكلة ، ولا أجد لها حلاً .. لذلك رأيت أن ألجأ إلى أصدقائى القراء الصغار ، ليفكروا معى ، وليساعدونى على التخلص من هذا المارد القزم ، وإلى الأبد..

بنوك الأعضاء الحية

قالت جدتي :

- الحي أبقى من الميت .

وراحلون كرماء، يعرفون أن أعضاءهم كافة تموت معهم، فلماذا لا يتبرعون بها لأناس أحياء، هم في حاجة إليها، قد تنقذ حياتهم، وتمد في عمرهم من أجل أن يواصلوا عطاءهم للإنسانية .. وهنا يبرز سؤال مهم، تختلف الإجابات عنه .. السؤال هو :

- هل يملكون هذا الذي يتبرعون به ؟

وماذا لو وجد من يتاجر به ؟

نبلٌ أن يتبرع أحدهم بدمه ، لكن هناك من يتاجر بهذا التبرع، ويأخذ عليه الثمن..

- ما العمل ؟

وما العمل فيمن يتبرع بما يسمى (قرنية العين) أو (الكبد) أو ... وهنا من يقول..

- هذا حلال .. شرط ألا يكون له ثمن ، وأن يكون " تبرعًا " حقيقيًا..

وفجأة نعلم أن هناك ما يسمونه " بنوك الأعضاء ". الناس، كما يودعون أموالهم في البنك ، يذهبون إلى هذه البنوك الجديدة ليودعوا أعضاءهم .. وكما يذهب صاحب الحساب ليسحب من ماله ما يشاء ، يتجه الأطباء إلى

بنوك الأعضاء الحية
بنك الرئة
بنك القلب

بنوك الأعضاء كي يطلبوا من البنك عضوا بذاته يحتاج إليه مريض ، وإلا ودع الحياة ..

هناك رصيد مما " يتبرع " أو " يودعه " أصحابه .. وهناك أقسام تحتفظ به، وتحافظ عليه إلى حين الحاجة إليه .. وهناك طبيب يطلب قلبًا، وآخر يريد كبدًا، وثالث يرغب في قرنية عين، أو .... أو.... ويصرخ البعض في وجه هذه البنوك...

- هذا حرام قطعًا !

ويرد أصحاب البنك :

- هذه الأعضاء ستهلك، والعقل الذي منحنا الله إياه يقول: لماذا نهدرها ؟ ..

ويسألهم كثيرون :

- هل تملكونها ؟

- أصحابها وهبوها لنا .

- وهبوها أم باعوكم إياها، وهم وأنتم لا تملكونها ..

البعض يرفضون هذه البنوك ، وقد أدانوا البنوك المالية من قبل ، ورأوا في أرباحها ربًا، مع أن البنك يكسب من ورائها أكثر مما يعطيهم ..

وطبيب الأسنان ، الذي أراه عبقريًا في عمله د . سامح برسوم يشكو لي مريضه..

- طب الأسنان ، أكثر أنواع الطب تخلفًا !

أضحك ..

المفروض أن أشكو له آلامى ، ولكن الوضع تغير ، وهو الذى يشكو، ومن مجال تفوق فيه، ويرى أن هذا المجال تخلف طويلاً عن طب القلب، مثلاً .. هم قادرون اليوم على إحلال قلب مكان آخر ، وكبد بديل عن كبد لا يؤدى دوره ، لكنهم فى طب الأسنان لم يستطيعوا ذلك، وما من بنك للأسنان مع شدة تعقيد استبدال القلب والكبد ..

وأضحك ..

أقول له : هم يصنعون ويزرعون الأسنان ، الآن .. ألا ترى ذلك تقدمًا ؟

- أريد أسنانًا لا يصيبها السوس ، وغيره .. وإذا ما حدث يجب أن يكون سهلاً وسريعًا ، لايحتاج صاحبه إلى هذا الكرسي الذى تشبهه أنت بالكرسي الكهربائى ! تذكرت هذا التشبيه الذى أتندر به ، وسألته فى جدّية :

- هل تتصور أن من الممكن إنشاء بنوك للأسنان ؟

- لا أظننا فى حاجة إليها .. رحلات الفضاء يسّرت لنا مادة لا تقل قوة عن الأسنان الطبيعية .. لكن ما أتطلع إليه هو : أسنان لا تعطب ولثة لا تضعف ، أرغب فى أن ينسى الناس أسنانهم ! هو يردد هذه العبارة الرائعة، إذ إننى لا أذهب إليه إلا إذا ذكرتنى آلام أسنانى بضرورة ذلك ، وهو بما يقوله هذا كأنما يسعى لإنهاء هذا الفرع الخطير الذى يراه متخلفًا، ويود أن

يتقدم إلى حد أن نصبح فى غير حاجة إليه..

وهى " فكرة " ..

هل مستقبلاً تختفى لافتة : طبيب أسنان ؟

هل تختفى كلية طب الأسنان ؟! .. إننا نستخدم أسناننا على مدى اليوم .. وتعطب .. وتمرض .. بل نجز بها على شفاهنا، كما أنها تعيش وسط بيئة تمتلئ بالجراثيم، وترتكز على لثة هشة، وإن كانت عظمية، ولست أنسى أننى سألته مرة :

- ما هذا الذى تصنعه بى ؟

أجاب ببساطة : المصنع يحتاج إلى تقوية عظام الفكين، أى أن أمور الأسنان أكثر تعقيدًا مما أظن. أعرف أن حجة أصحاب بنوك الأعضاء سوف ترجح فى مستقبل الأيام، ذلك أن الأديان كما قال شيخى: " حمالة أوجه"، أى أنها قادرة دائمًا على أن تجد فى عبارة " فيها قولان " ، قولاً يبيح لها الكثير ، خاصة وهى ترفع شعار :

- الضرورات تبيح المحظورات !

انتهى الأمر ، ثم حسمه على أوسع نطاق .. وقامت بنوك الأعضاء فى شتى أرجاء العالم ، بل وصلت إلى " البلاد الفقيرة " ، واتسعت وتعددت، فما أكثر هؤلاء العاطلين الذين لا مانع لديهم من الاتجار فى أعضائهم ، وهم على يقين من أنهم لن يكونوا فى حاجة إليها ، كما أن الذين يرغبون فيها كثيرون وعلى استعداد للتضحية بالمال الكثير والتنازل عما يملكون

فى سبيل الحصول على قلب، أو كبد ..

وازدهرت هذه البنوك، ربما أكثر من بنك روتشيلد .. وتضخمت فيها الأرصدة، وأصبح نقلها من مكان إلى آخر ميسورا، بل ربما أيسر من نقل الأموال .. بل ظهر استثمار جديد يمكن أن نطلق عليه " غسيل الأعضاء "..

أسوة بغسيل الأموال، وقد وقفت يومًا أمام ناطحة سحاب، فى نيويورك، قيل لى إنها مقر لبنك واحد، وأتصور أن " بنك الأعضاء " لن يقل عن هذا المبنى الضخم ارتفاعًا، ومساحة، وهو لن يحتوى قلوبًا فحسب، بل ربما تكون فيه أقسام لحفظ " الأظفار "، و" الجلد "، وبضعة أمتار من الأمعاء، وسيكون العلماء قد توصلوا إلى نقل الرئتين، والمعدة، والطحال، والبنكرياس وكافة أعضاء الجسم، بل والغدد مثل الغدة الدرقية، والغدة النخامية التى تقع أسفل الرأس من الخلف ..

وفى تقديرى أن ناطحة السحاب هذه ستكون أشبه بما هو عليه الآن فى محلات بيع قطع غيار السيارات ، وأظنها بالآلاف ، وكل طراز له قطعه البديلة .. وعلى مستوى صناعتها ..

زرع الأعضاء سيكون فى سهولة استبدال قطع غيار السيارات ، وفى يسر زراعة القمح والذرة والقطن ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن ذا الذى سوف يزرع الأسنان غير أطبائها ؟ !

وقد بدأت الفكاهات تدور حول هذا " المصنع " الذى سيقوم بعد سنين طويلة ، بزرع الأعضاء ..

وستكون آلات هذا المصنع مزروعة على عدة خطوط .. هناك من يعمل

على تغيير الجهاز الهضمي وتركيبه ، وآخر للجهاز التنفسي، وثالث للدورة الدموية والقلب، أما الأخير فإنه يعمل على استبدال المخ بآخر متميز، ومبدع ، ومتفتح .. وتقول الفكاهة: إن هذا الخط الأخير لم تكن لديه مادة كافية لهذا التغيير ، وعندما وصلت مذكرة بهذا الشأن إلى السيد رئيس مجلس الإدارة كتب عليها تأشيرة تقول :

" يتم تقفيل الرءوس على أمخاخ تقليدية قديمة ، متعصبة ، لاتمارس رذيلة التفكير " . . وشفع هذا بإمضائه الكريم .. ثم أضاف :

وذلك توفيرا للميزانيات.

بدأت الفكاهات قبل إنشاء " مزرعة " لزرع الأعضاء الحيوية ، ورأى أصحابها أن يكون هناك " مصنع " كامل شامل لكافة الأجهزة والأعضاء التعويضية .

إنسان لا يمرض !

أصبحت - أنا تامر - " مريضًا " بعلم الأحياء منذ أن تعرفت عليه ؛ لأنه العلم الوحيد ، الذى يحل كل مشكلات الإنسان مع المرض ، وأعنى بذلك أننى أريده أن يحيا مع الأرض بلا مرض ، كل عمره ..

ورأيت أن أذهب إلى طبيب ، بصحبة أمى ، وأقول له فى صراحة وهدوء :

- لا أريد أن أصاب بالمرض قط ..

نظر إلىَّ الطبيب نظرة فهمتها جيدًا .. وتجاهل ما قلته وسألنى فى هدوء :

- مما تشكو ؟

قلت : من كل شىء ، ومن لا شىء ..

قام الطبيب بتصرف كنت أتوقعه ، إذ امتدت يده ليضعها على جبينى ، فابتسمت وقلت :

- حرارتى طبيعية يا دكتور ، ولم ترتفع بعد إلى حد يجعلنى " أخرَّف " ..

رفع يده عنى

قلت :

- أنا جاد يا دكتور ..

قال : هذا يخالف طبيعة الحياة، مادمت " حيًا ".. أنا طبيب أعالج "المرضى " ولك أن تذهب إلى واحد من " علماء الحياة " ..

سألته : أين أجدهم ؟

- ابحث عنهم، ولا تأت إلىّ إلا إذا كنتَ مريضًا.

- أنا لا أريد أن آتى إليك مطلقًا .. لأنى أريد إذا حدث ومرضت علىّ أن آكل التفاحة الماسية ..

- لم أسمع بها :

- إنها التفاحة التى تشفى صاحبها من الأمراض كافة، ..

نظر الطبيب إلى أمى - يستنجد بها- وخلع القفاز الذى وضعه فى يديه عندما دخلنا إليه ..

قالت أمى : معذرة ، فقد طلب منى أن نستشيرك ولم أكن أعرف أو أتصور شيئًا مما يقوله .. شخصيًا لم تخطر ببالى فكرة ألا يمرض الإنسان، ولم يحدث أن طافت برأسى حكاية التفاحة الماسية التى تشفي الأمراض كافة ..

نظر إلىّ الطبيب فى يأس ، وكان يود أن يشير على أمى بضرورة عرضى على طبيب أمراض عقلية .. مع أن كل ما طلبته هو حلم من أحلام البشر منذ وجدوا على ظهر الكرة الأرضية .

عاتبتنى أمى عقب خروجنا من عيادة الطبيب :

- ما هذا الذى طلبته من الطبيب ؟ إنسان دون مرض ؟

قلت : أعرف أنى بذلك ألغى الطب والأطباء .. تعرفين يا أمى أننى أحب جدى، ولا أتصور الحياة من غيره .. لكن جدى بين يوم وآخر، يمرض ويلزم الفراش، وأحيانًا نضطر إلى نقله إلى المستشفى، وأضيق ذرعًا عندما أعود من المدرسة ، ولا أجده بالبيت .. وأتصور يومًا أنه ذات مرة سيذهب ولن يعود، ويعترينى الجنون، وأصارحك يا أمى أن الإبقاء على المرض والأطباء جريمة ..

وأسأل : لماذا لم يفكر العلماء والأطباء فى إنسان لا يمرض ؟

- ماذا تعنى؟! هذا مستحيل ..

- أعنى أن الإنسان يفكر فى الداء والدواء .. إننى أريد أصلاً أن أقتل الداء .. وبالتالى لن نحتاج إلى الدواء ..

- هى فكرة تبدو لى غير ممكنة ..

- هل سألنا أنفسنا ما الذى يسبب المرض ؟

- قد تقع حادثة ، وهذا يقع كل ثانية و دقيقة ، وقد تصيبنا الجراثيم .. والفيروسات .. وقد يتعطل جهاز عن أداء وظيفته ، ونحن آلات ، لا يمكن تفادى المرض ، ثم إن لكل أجل كتابًا ..

- هيا يا أمى نناقشها واحدة بعد الأخرى ..

- الحادثة سيارة ، شخص يسقط ويصاب ، و ...

ابتسمت أمى :

- هل تقدر على أن نحمى أنفسنا من ذلك ؟ .. ربما نحاول ، ولكن : لا يغنى حذر من قدر ، هذا هو قانون الحياة ..

- ألا نستطيع أن نقضي على الجراثيم ؟ كل الجراثيم الموجودة فى الدنيا. إنها صغيرة ضئيلة لا تُرى.

- ربما كانت قوتها تكمن فى ذلك .

- وماذا عن البكتريا ؟

- نفس الشىء يا تامر ..

- ثم ، ما هذه الفيروسات ؟

- عرفناها مؤخرا ، ونقاومها ...

- وتقوية المناعة ، هل يمكن أن تكون سبيلنا إلى الإجهاز على المرض ؟

- الجينات المتوارثة ، هل يمكن تفاديها ؟

ضحكت وقالت :

- أرى أن تتخصص فى علم الأحياء ، والهندسة الوراثية ، والتكنولوجيا الحيوية، ربما يكون فى ذلك خدمة للبشرية ، بأن تتقدم ولو خطوة فى هذا الذى يشغل فكرك وبالك .

أؤكد لكم أننى لست " مريضًا بالوهم " .. لكن هناك ما هو ليس بوهم.

obeikandl.com

إنما هو " همّ " يؤرقنى ليل نهار ..

- كيف أجد السبيل لكى لا يرث الأبناء أمراض الآباء ضمن ما يرثونه من مال وعقار ؟

- لماذا يرثون هذا ، ولا يرثون ذاك ؟ .. أريد إنسانًا يولد بلا مرض وراثى ..

إنى مستعد لأن أتقبل فكرة أن أتنازل عن كل ما يرثه الإنسان عن أبيه وجده، من مال وعقار وتحف، مقابل ألا أرث عنهم أمراضهم ..

قالت أمى :

- آه .. أنت تريد أن تتكلم عن العلاج بالجينات

- لا لا .. أنا أريد الجينات التى نرثها سليمة مائة بالمائة .. أو ألا نرثها ..

ابتسمت وقالت :

- لولا ما نرثه عن الأجداد والآباء ما صنعنا حضارة .. نحن لا نرث المال والجينات فحسب، بل نرث أيضًا العلم والمعرفة، وهكذا يتراكم ليصنع المدنية والتقدم..

ابتسمت وأضافت :

- كنا نعالجكم صغارًا لدى طبيب ، أعترف بعبقريته ، بعد أن ودع الدنيا منذ عدة سنوات .. والحديث عنه هنا ليس دعاية وإعلانًا ، ولا إعلامًا..

لكنى أريد أن أحكى عن نظرته ونظريته للمرض، أذكر اسمه أولاً..

- اسمه د "عطية عبود".

آلاف غيرى يعرفونه ، رحمه الله ..

عندما كنا نذهب بكم إليه، يقول بعد الفحص الدقيق :

- هو بخير ، نصف قرص أسبرين عند الحاجة ..

- دكتور ، الصغير حرارته مرتفعة و ... و .. ، عندما مرضت أنت اضطررنا لعرضه على طبيب آخر كتب له تذكرة أدوية من صفحتين !

- إذا شئت اذهبى إليه . ولا تأتى به إلىّ .. مدرستى فى الطب أن أدع الطفل يهزم المرض دون مساعدة من الدواء .. هذا يكوّن لديه المناعة عندما يكبر .. أما الدواء الكثير فهو داء أكثر منه دواء ..

- هذا يا أمى طبيب رائع .. الأروع أن يأتى طبيب لكى يلغى المرض أصلاً..

- كن هذا الطبيب ، ذات يوم .. مستقبلاً !

خريطة الجينات

سوف تذهب يومًا إلى الطبيب ، وبعد الكشف عليك ربما يقول لك ..

- أريد خريطة جيناتك !

- نعم .

- هل سمعتنى ؟

- وأدهشتنى، من أين آتى بهذه الخريطة ؟ من هيئة المساحة ؟ يضحك الطبيب ويقول لك :

- مكاتب هذه الخريطة منتشرة فى كل مكان .. بعضها ملحق بمعامل التحليل .. هل هذه أول مرة تطلب منك هذه الخريطة ؟

- نعم .. طلب منى تحليل الدم والبول .. وأيضًا طلب " رسم قلب " ، أو " أشعة مقطعية " وربما " رنين مغناطيسي " أو ... أو ... أما أن تطلب منى خريطة ، فهذا آخر ما يمكن تصوره ...

قال الطبيب فى حسم :

- الطب تقدم .. هل كانوا يطلبون من مريض قبل الحرب العالمية الثانية شيئًا من هذا القبيل ؟

- لا ..

- لماذا تندهش عندما أطلب منك أن تأتينى بخريطة جيناتك ؟

obeikandl.com

خريطة
جينات وراثية

- هل أمرها ميسور يا دكتور ؟

- بالطبع ، ونفقاتها أيضًا ..

- كيف يرسمونها ؟

- هذا أمر يجب ألا يشغلك ، وهو أيضًا لا يشغلنى ، المهم أن تأتينى بها ، وعن طريقها سوف يسهل لى أمر العلاج .

- هل هناك مكتب أو مركز معين ترى أنه الأفضل ؟

- كلها عندى سواء .. وقد برع البعض لا فى رسم خريطة واحدة ، بل عمل ما يمكن أن يكون بمثابة أطلس ، البعض يطيب له أن يستخرجه ويحتفظ به ، ويصحبه للطبيب، مع بطاقة صغيرة تحتوى على تاريخه مع الأمراض ..

ويضحك ذلك الذى سيقصد الطبيب، ويقول :

- أطلس جغرافى، وكتاب تاريخى معًا، كم تقدم الطب فى هذا الزمان الجديد

- نعم، لدرجة أننا نرثى لأطباء عصر ما قبل الجينات !

توصل العلماء - و"مندل بالذات"- إلى أن الأجسام الحية تتكون من خلايا ، وظن هؤلاء العلماء أن الخلية هى أصغر شىء فى جسم الإنسان .. وإذا به يكتشف أن الخلية عالم واسع ..

أدرك ذلك من خلال الميكروسكوب ..

رأى الإنسان الخلية بعد أن كان يتصورها مجرد كرة صغيرة، دقيقة، لكن ها هى واضحة أمام بصره، وبداخلها أشياء أصغر .. اكتشف الإنسان أن بداخل الخلية ما هو أصغر منها .. هناك نواة، وهى (بيضوية الشكل، ولها جدار مرن .. هل تسألون؟ هل يمكن أن نرى خلية ؟

نحن نراها كل يوم ..

أنت ترى البيضة وتسلقها ، وتأتى بها ، وتأكلها .. مؤكد ستندهش إذا قلنا لك إن البيضة خلية .. كبيرة !

- ماذا؟! ماذا عن بيضة النعام ، مثلاً ؟!

- هى خلية .. بل أكبر خلية فى الدنيا ..

- صدق من قال إن العلم تقدم بشكل كبير! .. وإن هناك المزيد على الطريق ..

مثل هذا الحوار سيدور بين المرضى وبين أطباء المستقبل ، الذين سيكونون أفضل وأكثر قدرة على علاج مرضاهم ، كما أن أطباء اليوم تقدموا عمن كانوا فى الماضى .. زرت صديقًا منهم فى "بليتر" ..

قلت لصديقى الطبيب :

- هل من جدوى حقيقية لتجارب الوراثة هذه ؟

ابتسم ، وقال :

- تدور فى بلادنا مناقشات واسعة حول ضرورة أن نكتفى ذاتيًا من

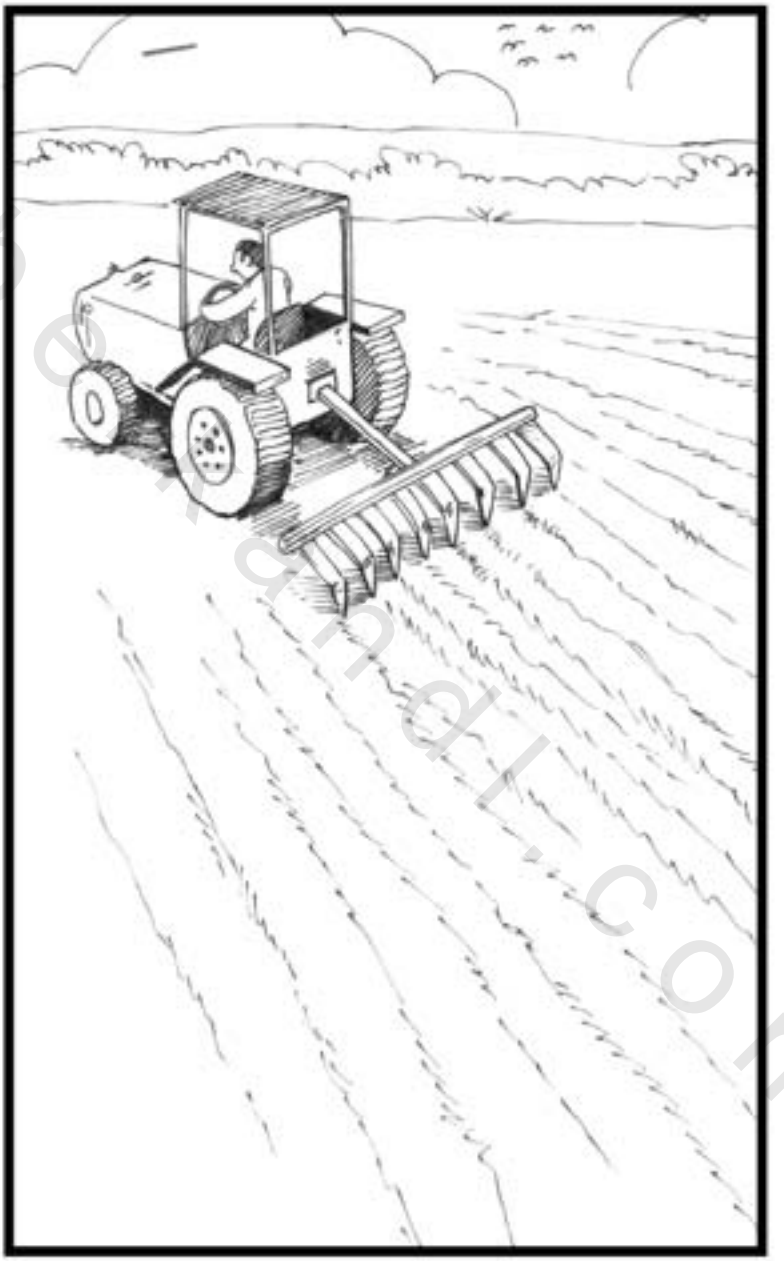

القمح ..

- أعرف ذلك .. هى سلعة استراتيجية لا يجب أن نعتمد فيها على الاستيراد من الخارج .. لابد وأن ننتجها من أرضنا ..

- رغبت أمريكا فى أن تجعلنا نركع حين رفضوا مدنا بالقمح ، ووقفت سفينتنا كليوباترا فى ميناء نيويورك تنتظر شحنها بقمح دفعنا ثمنه .. لكن العمال بإيعاز من إسرائيل رفضوا نقله للسفينة وقامت الدنيا ولم تقعد ..

- وكيف حُلت الأزمة ؟

- عبد الناصر حلها جعل العمال العرب يتوقفون عن شحن السفن الأمريكية فى موانينا فاضطروا لنقل القمح من على الأرض إلى السفينة كليوباترا .

- لنواصل حكاية القمح والوراثة ...

- كان هناك قمح ضعيف الجينات كثيرة حباته فى السنبلة، وآخر قوى العود وحباته قليلة .. الأول يخشى عليه من العواصف، والثانى يعاب عليه قلة إنتاجه .. أمكن إنتاج قمح قوى الساق كثير الحبات ..

صديقى الطبيب انتقل من الحديث عن جينات البشر إلى القمح. الأمر الذى أدهشنى .. وعندما أبديت له هذه الملاحظة، ضحك، وأضاف :

- ساهمت التكنولوجيا فى مجال الزراعة بشكل كبير ، يعتبره الكثيرون طفرة، وثورة، ويكفى لإثبات ذلك أن نضع أمامكم ثلاثة أرقام ، تتعلق بالمحاصيل المعدلة وراثيًا أى عن طريق الجينات.

* الرقم الأول : هذه المبيعات للمحاصيل كانت ٧٥ مليون دولار سنة ١٩٣٥.

* الرقم الثانى : أصبحت عام ١٩٩٨ مليارًا ونصف المليار أى الضّعف .

* الرقم الثالث : يتوقع لها أن تزيد إلى ٧٥ مليارًا عام ٢٠١٠ وفى سوق الدواء القائم على الجينات.

* سنة ١٩٩٩ كان ثمنه ٢,٢ مليار دولار.

* ارتفع سنة ٢٠٠٤ إلى ٨,٢ مليارات دولار، أى ارتفع إلى الضّعف سنويًا ، أى تضاعف أربع مرات فى أربع سنوات .

كنت أستمع لصديقى الذى تنقل ما بين الطب إلى القمح والنباتات ، ثم تحدث عن الاقتصاد والمستقبليات، وتجاوز هذا إلى الدواء والجينات مما جعلنى أسمعه دون مقاطعة ، وبدون تدخل من جانبى أو سؤال .. هو يفتح لى الأبواب؛ لكى أعيش فى مستقبل الأيام .. وفيما أرى هذا أفضل بكثير من أن أتحدث عن أمجاد جدودى بناة الأهرامات، التى يصعب أن تكون جيناتهم قد انتقلت إلىّ عبر عصور جاء فيها اليونان، والرومان والفرس، ومن قبلهم الهكسوس والحيثيون والعرب، الذين تغير معهم الدين واللغة والجينات بالتأكيد، وقدم الذين علينا بعدهم الفرنجة، والتتار، والعثمانيون .. ثم الفرنسيون والإنجليز .. ها قد انزلقتُ للحديث عن الماضى ومرارته .. لذلك لن أطيل فى الحديث عن الماضى، وقد أصبح عالمنا قرية على حد تعبيرنا الجديد، واختلطت الأنساب ..

تُرى ماذا يحمل لنا المستقبل ؟

سوف يحمل أطلس الجينات، جغرافيًا وتاريخيًا، ولن يدهشنى قط ما يطلبه حين يسألنى أن أعود إليه ومعى خريطة الجينات .. ربما يستطيع الواحد منا أن يرسمها بنفسه لنفسه .. كما يفعل مرضى السكر وهم قادرون على أن يغرسوا إبرة الأنسولين فى أجسامهم !

obeikandl.com

المصانع الحديثة

كانت الأسرة والمدرسة والنادى يسمونها :

- خديجة " المخ الكبير " ..

وهى تضحك لذلك ، وإن كانت لا تستريح له ، والغريب أنها لا تدرى لذلك سببًا أو سرًا ؛ لأنها تسمية وصفة يتمناها الجميع .. عندما تواجه الأسرة مشكلة فى البيت، يتوجهون إليها ، لكى تجد لها حلاً ، وفى المدرسة يرجعون إليها ، ويسألونها رأيها فى كل شىء حتى فى اقتراح اللعبة التى يمارسونها ، ويقبلون بما تشير ..

ذات يوم، قرأت فى الصحف عن مصنع مقام بجوار مدينتها ، ودفعها حب الاستطلاع إلى المطالبة برحلة إليه، وزيارة له، إذ إنَّ ما قرأته يثير الاهتمام والدهشة؛ لأنه يتصل بأمر له صلة بها، وباللقب الذى أطلقوه عليها .. هو مصنع يتعلق بالمخ، وعلى ذلك هو جدير بالزيارة فى أقرب فرصة ..

بادرت خديجة بطرح الأمر على أسرتها، لكن الوالد والوالدة لديهما أعمال تشغلها عن مثل هذه الرحلة .. ورأت أن تعرض الموضوع على المدرسة، وحاولت بكل السبل أن تقنع لجنة الرحلات بضرورة إدراج هذه الرحلة ضمن برامجها، وسرها كثيرًا أن تستجيب المدرسة لطلبها، وتحدد الموعد وكعادتها عادت إلى المعجم، ودائرة المعارف، وعلم وظائف الأعضاء فى المكتبة .. وابتسمت وهى تقرأ فى المعجم :

(مخمخ) العظم أخرج منه مخه .

(المخ) معظم المادة العصبية فى الرأس .. أو هو الدماغ كله إلا المخيخ.. والقنطرة .. والبصيلة .

و(المخيخ): الجزء الخلفى من الدماغ وهو مركز التوازن الجسمى.

وضحكت؛ لأنها لم تفهم الكثير، وقالت لنفسها :

- " تمخخ " فى هذا الكلام.

مادامت هذه الكلمة " فصحى " ، بينما نظنها عامية ، يطيب لى أن أستخدمها، وأيضًا أتباهى بها فى حصة اللغة العربية ، ومعلمنا يشجعنا على ذلك .. وأذكر أن زميلاً لنا فى أول حصة له معنا سأله :

- مامعنى كلمة الطريف التى تستخدمها كثيرا ؟

قال : الطريف ، هو الجديد ..

وبدأ يكتب على السبورة عبارة (شرح الطريف) فى كافة حصصه لدينا .

ما قرأته خديجة عن المصنع ، أثار اهتمامها ، خاصة وأن صاحبه قال فى تصريح له :

- لسنا مصنع دواء لعلاج الأمراض ، لكننا ننتج أشياء يحتاج إليها كل الناس، وأصبحت فى هذا العصر ضرورة ولا يمكن لأحد أن يستغنى عنها ..

كان هذا كلامًا جديدًا ..

- ما هذا الشيء الذى هو من هذا القبيل ؟

سألت، ولم يرد عليها أحد بإجابة " شافية " .. وابتسمت للكلمة ، فهى تدخل فى نطاق الموضوع .. أرجأت كل هذا إلى أن تزور المصنع ، ومنه ستعرف .. وكان من حسن حظها أن تجول المهندس بنفسه، ليقول لهم فى مستهل الزيارة ..

- أنتم فى مصنع " جديد " بكل ما تعنى الكلمة .. فهو مثلاً يدار بطاقة كانت قصراً على إنتاج الطاقة الكهربائية .. أصبحت ميسورة لنا فى مصنعنا الصغير .. هل تعرفون معنى " الصناعة الثقيلة "؟ أو الإنتاجية ؟ تناثرت الأصوات : لا ...

- المقصود بها أن المصنع الثقيل يصنع " مصنعًا " ..

مصنع النسيج ينتج أقمشة ، ومصنع مصابيح الإضاءة ينتجها ، والسؤال : ماهو المصنع الذى ينتج مصنعًا ؟

سألت خديجة : أهو المصنع الذى ينتج مصنعًا ؟

- نعم ..

فى القرن العشرين ، الماضى، كانت هناك محطات ذرية ضخمة تنتج الكهرباء، أصبح ميسوراً الآن استخدام الطاقة الذرية فى صناعات عديدة..

- أليست هذه المحطات خطيرة ويمكن أن تسبب فى كوارث كما حدث فى تشرنوبل؟

– كانت مقلقة مزعجة ، لكن العلم يتقدم .. واستخدام الطاقة الجديدة لابد منه بعد أن نضب إلى حد كبير الفحم والبترول ..

– وماذا تنتجون بالطاقة الجديدة ؟

ننتج جديدًا .. بعضه نسميه " مكملات غذائية " .. أصبح الناس يأكلون غذاء غير صحي ، ولا تكتمل فيه كل العناصر التى يحتاج إليها الجسم؛ لذلك نقدم ألوانًا من الشراب والأقراص لكى يكتمل الغذاء .. كما ننتج جديدًا فى مجالات عدة تحتاج إليها خلايا الجسم، مثلاً : الآلة التى نقف عندها تنتج أقراصًا ليس لها آثار جانبية .. مهمتها أن توسع وتكبر وتعمق مخ الطفل .. هتفت بعض أصوات : ماذا؟

كانت خديجة – المخ الكبير – أكثرهم اهتمامًا بما قال .. تبادل زوار المصنع النظرات، وكلها دهشة تصل إلى حد الذهول، إذ كيف فكرت العقول فى تكبير العقول وتعميقها وتوسعتها ؟ .. هل هذا ممكن ؟ أهو ميسور ؟

– بالطبع ، لم ننتج هذه الأقراص إلا بعد دراسات واسعة ، وعميقة لهذه الجوهرة، أعظم ما خلق الله تعالى ..

سألته خديجة : هل توصلوا إلى أن العقول التى تولد بها الناس فى حاجة إلى هذا ؟ أليست كافية لهم ؟

– التقدم البشرى يؤكد هذا .. كان ضئيلاً وضعيفًا .. لقد احتاج إلى ما يزيد على العشرين قرنًا ليصل إلى تفتيت الذرة وصناعة القنبلة الذرية .. تأخر كثيرًا جدًا فى السفر إلى الفضاء، أيضاً وضع أقدامه على القمر .. ولم يصل إنسان بعد إلى المريخ، ولم يصبح السفر بين الكواكب ميسورًا

للناس .. ولاشك أن وراء ذلك غير عدم قدرة العقل على المزيد من الإبداع والاختراع .. مثل آخر ، هو ما تتناقلونه فى فخر واعتزاز، فى تقديرنا وعلماء النصف الثانى من القرن الحادى والعشرين أن ظهور "زويل" كان يجب أن يكون فى القرن العاشر ، وليس القرن العشرين .

.. هل استوعبتم الفكرة ؟ !

وكبرت خديجة - المخ الكبير - واستخدمته فى إنشاء مصنعها المتقدم، وكان المهندس الذى توصل مع العلماء ومع الأطباء، إلى أقراص تنمية المخ، قد أحيل للمعاش، عندما شاهد مصنعًا يقوم مقابل مصنعه القديم، وفى مواجهته تمامًا، وخطر له يومًا وهو يزور زملاءه الذين مازالوا يواصلون العمل، ويزيدون من إنتاجهم بعد أن لقي قبولاً واسعًا وعريضًا ..

وتساءل المهندس : ترى أى شىء يصنعون ؟ اتصل بهم، وكانت مفاجأة له أن عرف أن صاحبة المصنع الجديد، ومديرته، هى " المخ الكبير "، التى زارته قبل سنوات طويلة .. وعندما ذهب إليها سألها :

- ماذا تنتجون فى مصنعكم هذا ؟

- ننتج شيئًا مختلفًا تمامًا عما كنتم ومازلتم تنتجونه وتغرقون به الأسواق ..

- أى شىء هو ؟

- ننتج أقراصًا ومشروبات ، تنمى لدى الإنسان مشاعر الحب ، وأحاسيس المودة التى يجب أن تسود بين البشر ..

هتف : ماذا ؟

قالت : أعرف أنك سمعتنى جيدًا ..

كان الزوار الصغار يديرون الفكرة فى رءوسهم .. وساد الصمت بعض الوقت ، إلى أن رفعت خديجة صوتها معقبة على هذا الذى تسمعه ..

- كنتم تريدون أن تتم صناعة القنبلة الذرية فى القرن الثامن أو التاسع ؟

- ربما قبل هذا .. وذلك لكى نصل اليوم إلى قنبلة تتجاوز تلك التى ألقيت على هيروشيما ونجازاكى عشر مرات.

هتفت خديجة : ماذا ؟ ! ألم يكف ما حدث من دمار ، وتريدون مضاعفته عشرات مرات ؟ ! .. أى عقول هذه التى تفكر بهذه الطريقة وتريدون لها أن تكبر وتنمو وتتسع وتعمق ؟ ! ..

- لا تنظرى إليها من زاوية الدمار فحسب ، بل من الجانب الإيجابى .. كما حدث لمصنعنا هذا .. لقد توقف استخدام الذرة والقنابل الذرية فى الحروب التى يسمونها محدودة ، ونستخدمها لخدمة السلام.

مطت خديجة شفتيها ، وقالت :

- مصنعكم هذا لا يعجبنى .. بل إنه يزعجنى .. أنتم تنتجون أقراصًا للمخ لينمو فى هذا الاتجاه المزعج ، عندما أكبر سأقيم فى المقابل لكم مصنعًا متقدمًا تقدمًا حقيقيًا يفيد الإنسانية والبشرية .. لست فى حاجة إلى منتجاتكم .

- لكننى لا أصدق ما تقولينه .. إنها مجرد حكاية يمكن أن ترويها للأطفال؛ إذ لا أظن أن مثل هذه الأقراص تستطيع أن تزرع فى النفوس هذا الذى تقولينه ..إنه شىء يتجاوز قدرات العقل ..

- كان .. أما الآن ، فقد حان الوقت لكى تفكر الإنسانية فى صالحها .. "المخ الكبير " يحفزنا إلى مثل هذا .. ولا أظنه كان فى حاجة إلى منتجاتكم التى بعتم منها بالمليارات وكسبتم منها الكثير ..

- ألا تكسبون فى صناعتكم هذه ؟

- نكسب، لكن المال ليس كل شىء.. أرباحنا المعنوية تتجاوز المادية .. ليس بالعقل وحده يعيش الإنسان، بل وبالمشاعر الحلوة، والأحاسيس الطيبة، كل إزاء الآخر ..

وملعونة هى العقول التى أنتجت القنابل الذرية والأسلحة الكيميائية .. وأهلاً بعقول جديدة تمعن النظر فى أمر ما يفيد الإنسان ولا يضره .. وبقدر ما تقبل على الأولى ، تباعد ما بينها وبين شرور الثانية ..

- هل تتوقعون لمنتجاتكم الرواج ؟!

- لقد راجت فعلاً ، وأصبح مصنعك غير قادر على منافستنا .

التفاحة الماسية

ذهبت إلى طبيب، سألنى :

- مما تشكو ؟

- أعرف أنى سوف أسقط مريضًا، فى وقت قريب ! هتف : ماذا ؟

- بداية أريد أن أقول لك : لست مريضًا بالوهم ، مثل صاحبنا الذى أضحكنا عليه الكاتب الفرنسي مولبير.

نظر إلىَّ، وقالت عيناه: إنه يرانى مجنونًا ، وقال :

- هل جئت لكى أعالجك من مرض سوف يصيبك ! قلت فى هدوء : نعم ..

- اذهب ، وانتظر إلى أن يجىء ، وساعتها، تعال .

- لا لا .. لن أنتظره .. أريد ألا أصاب به ..

- ما هو هذا المرض الذى تتحدث عنه ؟

- أى مرض ؟

- كيف عرفت به ؟

- أصيب به جدى ، ثم أبى .. وقد ينتقل لى بالعدوى .

- من قال إنك سترثه عنهما، أو تصاب به ؟

- الجينات .. تقول إنى سأرثه .

هز الطبيب رأسه ، وسأله :

- تعنى أنك تريد أن تتقيه ؟

- الأمر أبعد من ذلك .. وأكبر ..

- أنت تريد أن تطبق " الوقاية خير من العلاج " :

بل أريد ألا أمرض .. مطلقًا !

هتف الطبيب : ماذا ؟

- يا عزيزى الطبيب ، ما الذى يسبب لنا المرض ؟

- الجراثيم .. الفيروسات .. أن يقع لنا حادث .. أن يختل عمل جهاز ..أن تصاب خلية بجنون .. أنت تعرف ذلك أكثر منى .. كيف نتفاداه ؟

- ليس عندى دواء لمرض لم يحدث بعد ..

أكتب لك تذكرة تقول : درهم وقاية خير من قنطار علاج .

ضحكت .. وقلت له :

- هل تسمح لى بأن أحكى لك حكاية ؟

كان واضحًا أنه ضاق بى ، قال فى أدب :

- لا وقت عندى لسماع الحكايات !

obeikandl.com

قلت : لقد دفعت لك أجرًا لتكشف علىّ ، ولم تفعل ذلك .

- واضح أنك تريد أن تتسلّى ..ولا بأس .. المريض الذى يعدك اعتذر .. أنا مستعد لأن أسمع حكايتك ..

اتخذ الطبيب وضع الملك شهريار ..

وكأنما ظن أنى سوف أكون " شهرزاد " .. قلت له :

- لن أحكى لك التفاصيل فأنت تعرف الحكاية .... تقول الحكاية الشعبية: إن السلطان بعث بالأمراء الثلاثة - أبنائه - ليعود كل منهم بشىء ثمين، والذى يتفوق يكون ولى العهد، ويتزوج من ابنة عمه، التى هى أجمل فتاة فى الدنيا، وسافر الأمراء، واتفقوا على أن يلتقوا معًا قبل العودة إلى أبيهم، واختاروا مدينة قريبة منه .. وفى هذا اللقاء كشف الأول عما عثر عليه، وهو منظار ترى من خلاله لأميال بعيدة، وحصل الثانى على بساط الريح، والثالث على التفاحة الذهبية، التى تشفى كل الأمراض .. وجربوا المنظار، ليروا الأميرة فكانت مريضة وتكاد تودع الحياة، فركبوا بساط الريح، وأعطوها التفاحة الذهبية، لتشفى من مرضها .. وكان السؤال: من تتزوج ؟

وتمكن الإنسان من صنع التلسكوب ، والطائرة ، لكنه لم ينجح فى صنع الدواء الذى يشفى من كل داء .

ولا توصل إلى " ماء الحياة " ..

ولم يوفق علماء الدواء والصيدلة والطب إلى اكتشاف علاج ناجح

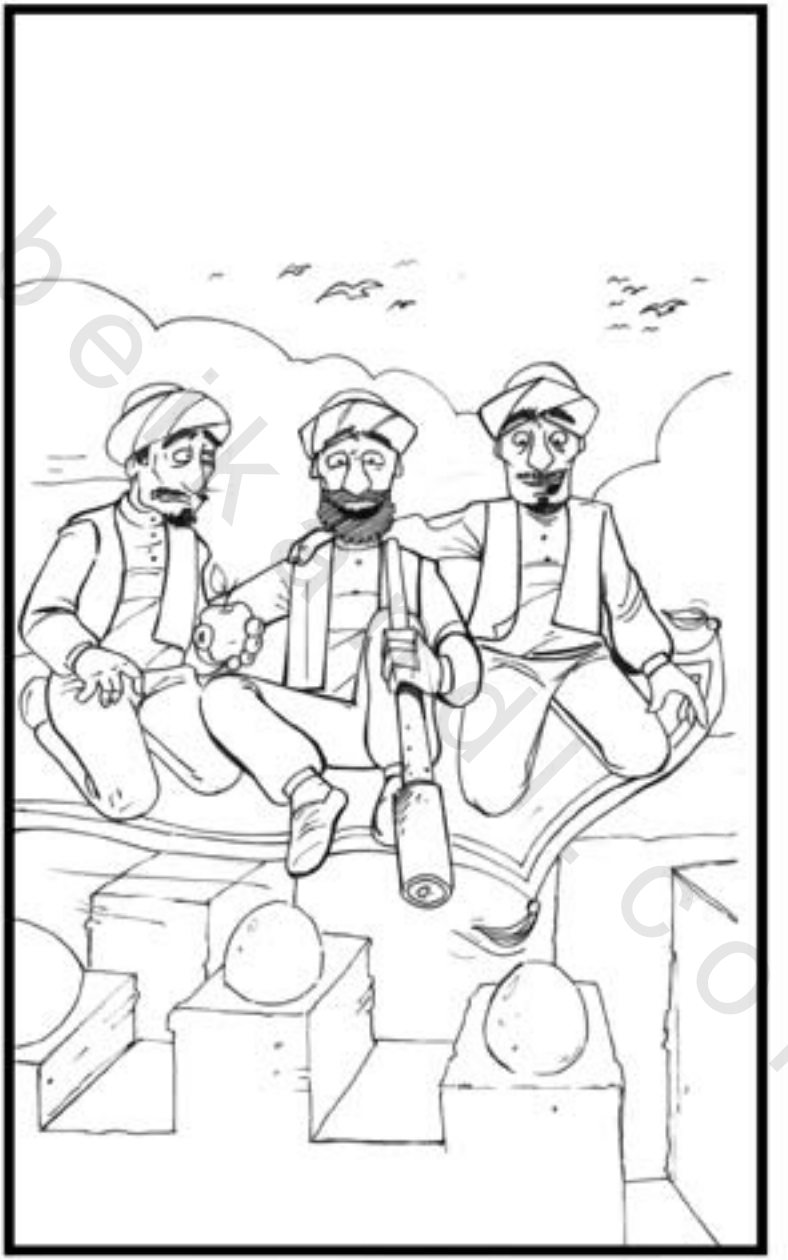

للكثير من الأمراض .. ومنها - على سبيل المثال - الإنفلونزا!

والسؤال : إلى متى تنتصر هذه الجراثيم الصغيرة الضئيلة على الإنسان الذى تقدم كثيرًا فى العلم والتكنولوجيا ؟! إنها صغيرة إلى الحد الذى قد لا نستطيع رؤيتها بالمجهر .. لم نتعرف عليها إلا منذ وقت قريب ؟ ! أما من أمل فى الوصول إلى ما تسميه الحكايات " التفاحة الذهبية " ؟

قال : الإنسان - منذ وجد على الأرض - يحاول أن يجد لكل داء دواء .. كما أن للطبيب مكانته المرموقة؛ لأنه قادر على معرفة مكان الداء ، ووصف الدواء الذى يخفف من آلام المريض ، ويساعده على الشفاء .. وكانوا يتصورون أن للطب إلهًا ، وأن الطبيب ساحر ولقى منهم كل احترام وتبجيل .. لمجرد أنه يقترح الدواء .

سألته : من أين يأتى بالدواء ؟

قال : سيجيب أحدهم ضاحكًا: من الصيدلية .. تعرفها ؟

هم فى ألمانيا يسمونها " أبوتيكا "، وقد أخذوا هذه الكلمة من اسم بلدة مصرية فى أسيوط، اسمها " أبوتيج " ..

وكانت أيام مصر القديمة والفراعنة هى المركز الرئيسي لمخازن الأعشاب التى يستخرجون منها الدواء .. و جدنا العربي ابن البيطار كان أعظم العشابين فى التاريخ أظنك أخذت من وقتى ما يزيد على ما دفعت ؟ ..

قلت : ما زالت عندى حكاية أخرى ..

- أريد يا دكتور - أنت وأنا - أن نحقق حلم ألف ليلة وليلة.

والحكايات الشعبية، أى أن نخترع " التفاحة " التى يطيب لى تسميتها أو وصفها بالماسية؛ لأنها ولاشك تساوى وزنها وحجمها ماسًا ..

كان الطبيب قد ضاق بزائره ضيقًا شديدًا ، ولم يعد أمامه إلا أن يتخلص منه بطرده من العيادة .. غير أن المريض قد قرأ أفكاره ، فقال له :

- لا تحاول أن تحول بينى وبين البقاء معك إلى أن نصل إلى كلمة سواء فى هذا الموضوع .. مد الطبيب يده إلى الجرس ليستدعى الممرض ، وهنا جذب المريض يده بقوة .. ورغب فى أن يستخدم التليفون للاتصال بالشرطة، فاعترض المريض طريقه باليد .. وتعقد الموقف .. قال الطبيب :

- أنت تعطلنى عن عملى ، وتضيع وقتى ، وهناك مرضى ينتظرون ..

رد المريض : بل أنا أفتح لك الطريق إلى مجد ما بعده مجد، ذلك أنك تستطيع أن تخلد شخصيًا فى تاريخ الإنسانية لو أنك حققت وجود هذه التفاحة !

- إنها مستحيلة ..

- ألم نحقق العين السحرية التى تفتح لنا الأبواب عندما نظهر أمامها ، وكانت من قبل صيحة مضحكة، تقول: " افتح يا سمسم "؟! ثم ألم نحقق بصمة الصوت فى فتح الخزائن ؟ ! بل وبصمة العين للوافدين على المطارات لحماية بلادنا ؟

استسلم الطبيب إلى حدٍّ ما بعدما سمع ضيفه ، إذ فكرة الخلود، واستثمار مثل هذا الدواء الذى يشفي كافة الأمراض ، سوف يجعل

منه ملياردير! خلال فترة قصيرة، وبذلك يرتاح من التعامل مع الأمراض والأوجاع ؟ إنه يعالج القلب بدواء يسيء للمعدة، ويشفى مريضًا بالجهاز التنفسى ويمرض الكلى ، إنه .. إنه ..

قال المريض واضحًا :

- الفكرة رائعة ، لكنها أشبه بتعليق الجرس من قبل الفئران فى رقبة القط ، كيف السبيل لتحقيقها بالله عليك ؟

- بالعمل والمثابرة .. صاحب قصتنا فى عملٍ له جعل صاحب القط يعلق بنفسه الجرس فى رقبة القط ..

- كيف ؟

- مكافأة له على صيده للفئران ..

ضحكا معًا، ها قد تحققت الفكرة المستحيلة.

سأله الطبيب:

- من أين نبدأ؟

- هل بدأت تعتنق الفكرة ، وتريد أن تعمل لها ؟

- نعم ، لا بأس بها .

- علينا أن نلتقى خارج العيادة .. ما رأيك فى أن نجتمع بالنادى ؟

- هذا أفضل كثيرًا .

- ولك أن تستعين بمن تشاء .

- بل أرجو أن تبقى الفكرة سرًا بيننا .. وربما نستعين بآخرين مستقبلاً .

- لا مانع عندى مطلقًا .. المهم أن تكون مقتنعًا، ومؤمنًا، ومثابرًا، ولا تتوقف فى منتصف الطريق، هل تعدنى بذلك ؟

- أعدك .

- فلنجدد أسباب الأمراض ، وبدلاً من أن تضعفنا وتقتلنا علينا أن نقتلها قبل أن تفعل بنا ذلك ولنحدد موعدًا قريبًا للشفاء .. اتفقنا ؟ !

- اتفقنا .

- ليكن شعارنا هو : فلتعش الإنسانية قادرة على اختراع التفاحة الماسية!

غادر المريض العيادة، وتنفس الطبيب الصعداء، وراح يستقبل مرضاه، إلا أن الفكرة شغلته عنهم، لأنه يديرها فى رأسه، رغم صعوبة تحقيقها، بل استحالتها، وهو يعرف ذلك يقينًا كطبيب؛ إذ هى لا تستقيم مع الواقع .

وعندما عاد إلى بيته مرهقًا، ورغب فى أن يدخل إلى فراشه لينام، إلا أن زوجته وجدته كالتائه ..

- ماذا بك ؟

- لا شىء ..

- أنت سرحان .. فيما تفكر ؟

- جاءنى مريض، اليوم، يريد أن أشاركه فى اختراع أو ابتكار دواء يشفى كل الأمراض .

هتفت : فكرة جنونية ، أجدى على الإنسانية من القنبلة الذرية ، تستحق عليها جائزة نوبل .. ثق أنى سوف أساعدك عليها وأساندك من أجل الوصول إليها .

عاد الطبيب يبدى اهتمامه بمرضاه وبالعيادة ، ذلك أنه أدرك بعد حين أن هذه الفكرة تخالف فعلاً طبيعة الحياة ، وكافة أمورها .. وإن كانت بين حين وآخر تقف إلى رأيه..

- لقد تحققت أشياء كانت مستحيلة .. ويرد على نفسه : يستحيل علينا تفادى الحوادث .

وما من سبيل لتفاديها ، ولن تستطيع أى تفاحة ذهبية ، أو ماسية، أن تجعل العظام والكسور تلتئم ، وهى لن تستطيع القضاء على كافة الجراثيم والفيروسات فى كل الدنيا .. كما أن علم وظائف الأعضاء يتناقض مع مفعول هذه التفاحة ، التى هى مجرد خيال..

وعندما اتصلتُ أنا المريض بصديقى الطبيب أسأله موعدًا نلتقى فيه بالنادى ، سألنى:

- من أجل أى شىء ؟

ضحكت وقلت له:

- من أجل التفاحة الماسية .

ضحك ورد علىَّ :

- لا وقت عندى لمثل هذه الحكايات الخرافية التى ما عاد الأطفال يصدقونها.

وأعاد السماعة إلى مكانها .

تسألوننى : هل شعرت باليأس ؟

أقول لكم : لا، قد يستطيع طفل من قراء هذه الحكاية تحويلها إلى حقيقة واقعة فى مستقبل الأيام .. إنها فعلاً حكاية قد تحدث غدًا !

قال الصديق الطبيب :

- أخشى ما أخشاه أن أحقق هذا الحلم للناس ، وأقدم إليهم التفاحة الماسية فعلاً، وإذا بهم يحولونها إلى حبات عقد يدور حول رقابهم .. أو ربما يفكرون كما فعل نيوتن : لماذا هبطت وسقطت ؟! وقد ينقذون الإنسانية منها بأكلها، طازجة، ولا يعودون يزرعون أشجاراً تثمرها!

الوجه الجديد

قال صديقى الصغير " وائل " :

قرأت فى صحيفةٍ أن السينما تحتاج إلى وجوه جديدة، سارعت إلى المرآة، أتطلع إلى وجهى، وأسأل نفسي : هل هو جديد ؟ هل يصلح للسينما ؟

رحت أتملى فى وجهى، وأحركه إلى اليمين وإلى اليسار، وأمعن النظر فيه، وتذكرت أن عندنا مرآة مكبرة، أتيت بها، ورحت أعاود النظر، وأسأل نفسى : ما رأيك ؟ أليس هو وجه نجم ؟!.. هل يقنع المخرجين ؟ وهل أنا شخصيًا مقتنع به؟ !

قادتنى المرآة المكبرة إلى مرآة ثالثة ، ذات ثلاثة وجوه ، تلقتها أمى هدية فى عيد ميلادها ، لهذه المرآة خلفيتان تفتحان على ثلاث مرايا: واحدة عريضة فى المواجهة، واثنتان على الجانبين .. استخدمتُها ولم أكن منتبهًا إلى أن أبى يرقبنى من بعيد ، ويتابع ما أفعله .. ارتفع صوته يسألنى :

- ما هذا الذى تفعله ؟

ارتبكت .. توترت .. انزعجت .. ورأيتنى أضحك لكى أتمالك نفسي ، ولأجد ردًا مناسبًا ، قلت :

- لا شيء ..

- أنت تنتقل بين المرايا ، هل هناك ما يؤذى عينيك ؟

- لا. فقط أتطلع إلى وجهى.

سألنى : هل من جديد فيه ؟

ورأيتنى أقهقه ، وأنا أجيب فى صراحة :

- أنا أبحث فيه عن جديد فعلاً ..

- هل وجدته ؟

- لا أظن، فقد أعلنت إحدى شركات السينما عن حاجتها إلى وجوه جديدة، وتوسمت أننى ووجهى نصلح للظهور على الشاشة ..

ابتسم، وسأل : وكيف كانت النتيجة ؟

- لم أجد وجهى جديدًا ، لأنى أحمله منذ ولادتى ، وعمره الآن يقترب من اثنى عشر عامًا ..

ضحك أبى، وراح يشير علىّ بأن أعيد المرايا إلى مكانها .. وهو يداعبنى قائلاً:

- جميل أن تتحمل التطلع إليه فى كل هذه المرايا ، لتدرك كم يعانى من حولك من رؤيته بشكل مستمر .

نسيت، أو تناسيت، أمر وجهى، وبعد أن أفهمنى أن المقصود هو أن يكون الوجه جديدًا على الشاشة ..

لكن شيئًا ما يذكرنى بهذه الحكاية العابرة ، مثلما حدث حين أشارت

زميلة لى إلى صورة نجمة سينمائية صبوحة الوجه ، باسمة الثغر ، ضاحكة السن ، وقالت لى :

-تصور أن عمرها يزيد على الستين عامًا !

- هتفت : ماذا ؟

- قالت فى هدوء ومرح : شدت وجهها !

لم أفهم العبارة ، فقد كانت أول مرة أسمعها ، وتساءلتُ فيما بينى وبين نفسي عن معناها ، قبل أن أستفسر منها عن المقصود ، وكيف يمكن أن " يشد " أحدهم وجهه.. قالت الطريقة الهادئة نفسها :

- عملية تجميل ..

كنت أريد لها أن تسترسل فى الشرح ، وتتكلم بوضوح فى تفاصيل الموضوع ، وكان واضحًا أنها لا تعرف الكثير عنه ، وإن أضافت ..

- الأطباء يقومون بها .. فى سهولة ويسر ..

سألتها : هل يباح للإنسان تغيير معالم وجهه ؟

- هى لم تغير شيئًا ، فقط تخلصت من الغضون بحكم السن ..

أبديتُ بعض الدهشة ، قالت :

- الظريف أن هذه الفنانة بالذات قامت فى شبابها بتمثيل دورين فى فيلم قديم. دور شابة صغيرة كانت فيه على وجهها الطبيعي الجميل ، ثم

دور عجوز واحتاجت إلى " المكياج " لتبدو جدّة، طاعنة فى السن ..

– هذا مقبول؛ لأنها ستعود كما كانت بعدما تزيل المكياج والأصباغ من وجهها .. هل يمكنها أن تفعل هذا بعدما .. " شدت " وجهها كما تقولين ؟

– لا لا .. هى تريد أن تبقى " شابة " و " جميلة " .

ضحكتُ وقلتُ : هى " تغش " الناس بما فعلته .

– هناك من يبيح هذا، ولا يرى فيه شيئًا أو عيبًا، المشكلة فيمن يغيرون ملامحهم بالكامل.

مرة أخرى رأيتنى أهتف فى دهشة : ماذا ؟ !

– ألم تر فيلمًا من تلك الأفلام التى يلجأ فيها المجرمون إلى هذا؛ لكى يهربوا من الشرطة والعدالة ؟

– أذكر أنى رأيت شيئًا من هذا القبيل ، لكنه لم يستوقفنى .. مرتكبو الجريمة يضيفون إلى جريمتهم جريمة التخفي ، وليس ذلك غريبًا عليهم .

وطردتُ الموضوع من رأسي، وظننتُه قد تلاشى .. وعاد الموضوع يلح علىّ من جديد، وأنا أقرأ عنوانًا يمتد إلى خمسة أعمدة فى الصفحة الأولى لصحيفة كبيرة، العنوان يقول :

" جدل واسع فى أوربا حول مشروعية زرع وجه جديد ".

جعلنى هذا الخبر أستعيد فى ذهنى كل ما مرّ بى حول " الوجه الجديد" .. و "أشد " وجهى بنفسى ، دون حاجة إلى عملية جراحية يجريها أطباء،

التجميل ، ولا أظننى أصبحت بذلك أكثر وسامة، بل لعل رعبًا ارتسم على وجهى ، وأنا أكاد أصرخ :

- هل وصل بنا الأمر إلى " زراعة الوجوه " ، بدبلاً عن زراعة الذرة والقمح والشجر و .. ؟

حملت الصحيفة إلى أبى، أشير إلى الخبر، قرأه متمهلاً ، وبعدها سألنى : ما رأيك ؟!

- لم أفهم ، لكى أبدى الرأى .. ماذا يعنى " أن نزرع وجهًا " ؟

- الخبر واضح بكل تفاصيله .. سيدة تم تشويه وجهها بالكامل ، قضاءً وقدرًا، أو ألقى عليه حامض ، نسميه فى اللهجة الدارجة " ماء نار " ! وسأل الأطباء أنفسهم : ما العمل لإنقاذها ، خاصة أنها لم تعد قادرة على تناول طعامها من خلال فمها ؟ !

- هل يمكنهم أن يزرعوا لها وجهًا بديلاً ؟

- نعم .. استعاروا وجهًا من سيدة ، ماتت إكلينيكيًا؛ بمعنى أنها طبيًا قد انتهت حياتها ، لكن روحها لم تصعد بعد إلى السماء .. أخذوا هذا الوجه ، وأزالوا وجه السيدة المشوه ، ووضعوا هذا مكان ذاك .. ما هو الشىء الذى لم تفهمه ؟

أعدت طرح سؤالى القديم لدى سماعى حكاية " شد الوجه ".

- هل هذا مباح ؟

ابتسم إليّ : سأقول لك ما كان يرد به علماؤنا على كل سؤال من هذا القبيل ، كانوا يرددون : فيها قولان .

أى رأى ، ورأى آخر .. علميًا وطبيًا ، لا شك أن هذا إنجاز رائع ، فيما مضى كان يمكن استبدال بعض الأعضاء ، لكننا الآن أمام عملية تغيير كاملة ، إزالة وجه، وزراعة وجه آخر مكانه .. لا أجد يجادل فى أن الذى حدث عمل رائع طبيًا وعلميًا ، أما هل هو مباح أم غير مباح؟ وهل هو حلال أم حرام ؟ فذلك أمر لا أحب أن " أفتى" فيه.

قلت : ولا أنا .

– لذلك هناك جدل حوله .

هززت رأسى ، قائلاً .

– نهاية مفتوحة .. شأننا معها شأن العلم .. بابه مفتوح للأبد .. إلى أن تقوم "الساعة"! وسؤال آخر، لا أدرى لمن أتوجه به .

إلى العلماء والأطباء ، أم إلى علماء الدين وفضيلة المفتى :

– هل يأتى على الناس زمان ، يذهب فيه واحد منهم إلى المستشفى ، ليقول للطبيب: "ازرع لى وجهًا جديدًا " ؟

ربما يسأله الطبيب : ما حاجتك إليه ؟

– ضقت به يا دكتور، وسئمت .. حملته عشرات السنين، وأريد التغيير، أليس هو أساسي فى حياتنا الراهنة ؟

- وماذا لو أن جسمك لم يتقبله، وطرده ؟

- لا شيء من هذا القبيل ، العلم تغلب على هذه المشكلة ..

- ماذا لو أن الوجه الجديد لم يعجبك ؟

- ربما أعود إليك لتزرع آخر ، أجمل وأكثر وسامة .. لدىّ من المال ما يمكننى من أن أدفع التكاليف مهما كانت باهظة ..

- والوقت ؟

- لا أعرف كيف أقضيه وكيف أبدده ..

ويهتف الطبيب ، ونحن معه فى ذهول :

- يا سبحان الله .

obeikandl.com

الفهرس

الحكاية	الصفحة
مقدمة	٣
النكتة التى ستصبح علمًا	٤
متحف الكتب	١١
التداوى بالحكاوى	١٩
المارد القزم	٢٩
بنوك الأعضاء الحية	٣٤
إنسان لا يمرض	٤٢
خريطة الجينات	٥٠
المصانع الحديثة	٥٨
التفاحة الماشية	٦٧
الوجه الجديد	٧٨
الفهرس	٨٧

obeikandl.com